# التأويل والتأويل المضاد
# قراءة دلالية في مجموعة
# صقر فوق رأسه شمس

**د. احمد ناهم**
**كلية التربية قسم اللغة العربية**
**الجامعة المستنصرية**

**الملخص**

الدلالـة عنصـر نـابض فـي جسـد القصـيدة فهـي أول شـيء فـي ذهـن المبـدع يريـد إيصـاله للمتلقي، الذي بدوره يحاول جاهداً استقصاء هذه الدلالـة حتـى لـو كانـت غير مقصـودة وعلـى أيـة حـال فجهد القارئ فـي إنتـاج دلالـة أخرى خاصـة عمل أبداعي وشرعي وصـحي ينطوي علـى مهارات إنتاجيـة تأويليـة خاصـة تنـأى بالعمليـة الإبداعيـة التواصـلية بأطرافهـا (المبـدع، النص، المتلقي) بعيداً إلـى مجال آخر معين يعطـي عملية التواصـل جوهراً إبداعيا مثمراً، وقد وجدنا قدرة الشاعر رعد عبد القادر في التعامل مع مفردتي الدم والموت متميزة فـي نصـوصـه مما اكسبها أبعادا مثاليـة وشـعرية فضـلاً عن الـدلالات الجديـدة التـي رشُـحت والتـي أعطـت القصائد بعداً جمالياً وأدبيا إذ إن التحول أو التكرار في الألفاظ يحرك النص ومن ثم تتحرك الأبنيـة المصـاحبة كالدلالـة والصـورة ومـا إلـى ذلـك مـن عناصـر أخـرى مـن عناصـر الـنص الأدبي ليبدو أكثر انسجاماً وأقوى تماسكاً.

# التأويل والتأويل المضاد
## قراءة دلالية من مجموعة صقر فوق رأسه شمس"*

**د. احمد ناهم**
**كلية التربية قسم اللغة العربية**
**الجامعة المستنصرية**

تمثل الدلالة عنصراً من عناصر الأثر الأدبي مثل الصوت و الإيقاع والتركيب البنائي للنص ... ومن الجدير بالذكر إن أي تغيير في بنية النص مهما كان يسيراً ... فإنه سوف يؤدي إلى تحول كبير على مستوى البنية الدلالية كما تذهب إلى ذلك المدرسة التحويلية التوليدية في اللغة ورائدها العالم اللغوي الأميركي نعوم تشومسكي. وينبغي هنا التفريق بين المعنى والدلالة، فالمعنى يخص المبدع وهو ثابت غير متحول أي انه واحد غير متعدد لارتباطه بقصدية المؤلف في التوصيل أما الدلالة؛ فهي متعلقة بالمتلقي (القارئ) لذلك فهي متحولة ومتحركة ومتعددة أو متجددة بتعدد وتجدد القراءات حتى على صعيد قارئ واحد(١)؛ إذ يتجه المتلقي عبر التأويل وبفضل قراءته النموذجية إلى البقاء على بعدٍ متساوٍ من عدم كفاية الفك السطحي للرموز وعن مبالغات القراءات المتعالية التي تجد في النص ما لا يوجد فيه. (٢) فعند القراءة يتم الانتقال من المعنى الأول إلى المعنى الثاني أو يتم الانتقال من النص الظاهر إلى النص المكون في ذهن القارئ (٣) أي إن ثمة معنى أولي يجب الحفر وراء هـ للوصول إلى المعنى الآخر الثانوي وهو المطلوب أو المقصود الذي يرشحه المتلقي عبر آليات القراءة والتأويل المختلفة كالترابط المنطقي للغة، وفرز القرائن المتباينة وملء الفجوات الموجودة داخل النص واستدعاء الرموز والإشارات المختلفة واستنفاد القراءات السطحية والمعمقة بحثاً عن الدلالة. وهنا يحاول القارئ أن يقرأ نصاً أنتجه بطريقة ما وعلى نحو ما؛ فالنص المقروء لا يتكرر وإلا بطل كونه نصاً؛ إن القراءة فعل سيميائي مولد للاختلاف(٤) أي اختلاف الدلالات المترشحة من خلال القراءات المتعددة إذ إننا نقرأ في المقاطع المكررة شيئاً آخر غير الذي قرأناه أولا(٥) وذلك بفعل نشاط التأويل المحفز للإنتاج الدلالي بفضل اختلاف ظروف القراءة ومن ثم اختلاف الدلالات المتولدة فيه لاختلاف هذه الظروف المصاحبة لقراءة النص الذي تتحكم فيه عوامل خارجية وداخلية

مختلفة. إن ديناميكية القراءة تجعل منها عملاً إبداعيا ومساهمة إنتاجية، لكن في نطاق الإستراتيجية النصية الموجهة سلفاً(٦). هذا التوجيه بطبيعة الحال ناجم من تسير القارئ لهذا النص المؤول بفضل خزين معرفي مرتبط بالقراءة والبعد الفيزيائي للقارئ والنص على حد سواء من اجل فك شفرة النص الشعري فالتأويل عملية تفاعل بين فعل وبنية(٧) أي فعل القراءة وبنية النص لإنتاج الدلالة. فهذا هو التأويل انه يزيل ويحفر وبينما هو يحفر فإنه يدمر، انه يحفر خلف النص للعثور على نص فرعي هو النص الحقيقي (٨) ويجب أن لا نغفل العلاقات البنائية بين الكلمة وجارتها أو الجملة ونظريتها في تشكيل البناء الذي يولد الدلالات المطلوبة(٩).

تتكرر ثيمة الموت في مجموعة رعد عبد القادر (صقر فوق رأسه شمس) وهيمنتها بشكل مفرط يعطي دلالات جديدة وهذا ما تؤكده جوليا كريستفيا بقولها: (في اللغة الشعرية لا تظل الوحدة المكررة هي هي وهو ما يجعل كونها أخرى بمجرد ما تخضع للتكرار) أي إن لفظة أو ثيمة الموت المكررة في قصائد هذه المجموعة يمكن أن تأول بحذر قصد الوصول إلى دلالة ثانية (نهائية)قد تكون هذه الدلالة في الطرف المخالف أو النقيض من الدلالة الأولى وهذا ما سنكتشفه من تحولات هذه المفردة في قصائد مختارة من هذه المجموعة كما في قصيدة (أصوات ذائبة) التي يقول فيها:

**عامل الهواتف**
**حطّ – ذات شتاء – قرب كابينة – غارقة الماء**
**بعد دقائق اختلطت الأصوات بالماء وذابت**
**قطرات من الشمس تلألأت على سطح أوراق**
**لشجرةٍ عجوز**
**عصفور حرك ذيله محاولاً التخلص**
**من كوة الأسلاك**
**قطرات من دمه على الأرض اختلطت بذهب الغروب،( ص٥.)**

واضح من خلال القراءة الكاملة للنص انه يعالج موضوعة الموت وهذا الموت يأتي بطريقة مأساوية كما حصل هنا مع العصفور فالشاعر يرسم مشهدا متكاملا يتجسد طقس

الموت الذي يتمثل في أسلاك مكهربة مع المطر الذي غطى المكان، ومن ثم يصور الشاعر قدر العصفور الذي علق بالأسلاك محاولاً الفرار دون جدوى فضلاً عن الموت وديكوره الذي لف المكان وانتهاءً بالألفاظ الموحية بالموت إلى الاشارت الموحية الموت صراحةً (قطرات من دمه على الأرض اختلطت بذهب الغروب) فالموت ماثل بشدة من خلال الصور و الألفاظ التي أوحت بشدة بالموت لكثرتها (اختلاط الأصوات، الماء، ذائب، شجرة عجوز، الغروب) ولكن ماذا بعد هذه الدلالة؟ انه إشارة الشاعر إلى أن اختلاط الماء مع الصوت ليس موتاً كما إن اختلاط الدم مع الضوء الغارب ليس مقتلاً فهل أراد الشاعر من خلال هذه القصيدة التي كانت بعنوان (أصوات ذائبة) أن يوصل صوتاً معيناً أم إن الموت يؤدي إلى عالم لا ندركه يتمثل في حياة أخرى وهذا ما نراه ولكن بطريقة مختلفة في قصيدة (**قصائد حوادث**):

**هيكل السيارة في العراء كسفينة حمراء**

**ضوء القمر يسقط على لوحة المفاتيح**

**السيارة تنطلق: الرجال الملثمون الثلاثة اختلفوا في الموعد**

**لم يستطيعوا تغيير العالم**

**الرجل الجالس في الخلف لم تخترقه الرصاصات ص١٩.**

فعلى الرغم من أن الإيحاءات المختلفة التي ترشح الموت المحتوم من خلال رمز هيكل السيارة والتي قد تكون مفخخة مروراً بدلالة الصحراء الدال على الجدب والعدم والرجال الملثمون الذين امتهنوا صناعة الموت فعلى الرغم من كل ذلك فان الموت لم ينل من ذلك الرجل الجالس في الخلف، إذ لم تخترقه الرصاصات إذن كيف حصل هذا فمع كل هذا الركام المساعد للعبه الموت لم يمت ذلك الشخص الجالس في السيارة وهذا يعطي دلالتين الأولى : انه ميت أساساً والأخرى انه رجل محظوظ لدرجة لا تصدق فهو يحمل مضادات روحية تقاوم الموت بهذا الشكل الطريف. ولكن الأمر لا يستمر هكذا إن الحظ لم يكن دائماً معه في اغلب الأحيان فقد خانه مرة فنقرأ:

**الكائن على الطاولة**

**العصفور في القفص**

**الحشرة على الحائط**

**كانت يد ترفع بالرسالة من تحت الباب**

**كان صوت انفجار مروع ... ص٢٣.**

الموت لا يترك الشاعر أو إن الشاعر لا يريد أن يغادر هذه الألفاظ الموحية بدلالة العدم وهذا ما تعكسه الصورة هنا إذ لا تترك مجالاً لتأويل آخر فالانفجار الذي لا يخلق صوتاً مدوياً فقط ولكنه يعطي انطباعاً أليما وربما أصبح إشارة سيميائية لحتمية الموت الذي حل بالمكان.

بيد أن التركيز على هذه التكرارات أي تكرار ثيمة الموت غير الطبيعي قد يدفعنا إلى اقتراح دلالة ثانية ليست متعلقة بالمعنى الحرفي لها ،تترشح من خلال حادث كما مر سابقاً مع النصوص المختارة إذ إن الموت في هذه النصوص يشير سيميائياً إلى خلاص ما أو راحة أبدية ولكن هذه الراحة وذلك الخلاص لا يأتي بسهوله إذ يتبلور عن طريق الفعل الايجابي في التخلص من الأشياء الكريهة في الحياة للبحث عن حياة أخرى يجد فيها الشاعر مبتغاه من خلال النفوذ إلى عالم آخر بوساطة لعبة الموت هذه التي شغف بها فراح يتفنن في مناجاة عوالمها المخيفة والغريبة في آن واحد فيقول:

**كان يكتب قصيدة عن الموت**

**احضر سكيناً**

**شم سطحها الأملس ... امتلأ بشذى شقها العميق**

**السكين تلمع في المطر**

**اليد تدفع في السكين شيئاً فشيئاً**

**تفتح شقها منحياً كالهلال**

**كان قبره مجاوراً لقبرها**

**تحرك نحوها**

**أحس بحرارتها**

**أنت لستِ ميته**

**أحست بحرارته**

**انت حي**

**فوق جسديهما مرت عربة البطيخ ... ص٣١.**

إذن فالموت عند رعد عبد القادر انتقال مكاني وتحول نفسي وومضة شعرية؛ انه اكتشاف لعوالم جديدة، ولكنه هنا- كما قلنا سابقاً- هو موت عن طريق حادث عرضي؛ فالشاعر أراد توصيل فكرة الموت بدلالة انتقال وتحول : دخول في عالم وخروج من عالم آخر، دخول في فضاء الخيال نحو حياة جديدة وهذا ما نلاحظه في قصيدة (أغنية لطائر البرق) التي يقول فيها:

**نمْ هادئاً**
**بأمان**
**سبع شجيرات ورد يحرسنّ نومك**
**وطائر يصفر لحناً سماوياً**
**نمْ هادئاً دع النهاية – مفتوحة**
**وأغلق الباب جيداً ... وان قرعوا لا تفتح**
**القصيدة قرب رأسك وقدح الماء**
**وطائر البرق في نومك**
**وان قرعوا لا تفتح**
**دع النهاية مفتوحة**
**واغلق الباب جيداً وان قرعوا لا تفتح**
**نمْ هادئاً**
**بأمان ... ص١٣٧.**

إن دلالة الحياة متوافرة برغم موته (نم هادئاً) ثمَة إشارة لفظية للموت بدليل (سبع شجيرات ورد يحرسن نومك) فالورد عادة ما يقدم وينثر على القبور وعلى توابيت الأموات؛ أما الطائر الذي يصفر لحناً سماويا فهو نذير الشؤم الذي توارثته الشعوب من خلال أساطير وخرافات تقول بهذا وقوله وان قرعوا لا تفتح، أغلق الباب، فما زالت النهاية مفتوحة اشارات تدل كلها على سرمدية الموت ونهايته الأبدية، و بالرغم من عدمية الموت فلم يحصل هنا

سوى انتقال مكاني حصل للشاعر. ولم يتوقف الأمر عند مضامين النصوص وحدها بل امتدت إلى عنونتها بما يوحي للموت بطريقة أو بأخرى( أصوات ذائبة، قمر وحروب، حوادث، جريمة قتل، عظام الأجداد، روح انتقامية، دفن الجثة، كي الجسد، صلاة للأرواح الجسورة، مدفن الفراشات، تمثال نصفي من الشمع لرجل غائب، قصيدة موته). ويشكل الدم رمزاً للموت المقدس (الشهادة) عند الشاعر ثم يتحول البعد الأسطوري للونه القاتم للدلالة على الحياة وخصوصاً عندما يختلط بماء معين (رمز الحياة) وهكذا عندما يختلط رمز الموت مع رمز الحياة تتبعث الروح الجديدة في عالم آخر نقرأ:

**قمر قمر لمريم وقمر لماريه وقمر لزينب**

**هاجر في شهرها السابع تنذر للقمر**

**ومريم تتلمس في ضوء القمر بطنها**

**وزينب تنظر الى دم القمر في الماء ص١١٠.**

وتعد مفردة الدم من العناصر المهمة التي أفاد الشاعر منها إفادة بالغة في تعميق الحياة الأخرى؛ فهو من جانب يعد رمزاً للحياة الجسدية فبوساطته تتم حياة الخلايا لنقله الأوكسجين لها وإسالته في جسد الإنسان في الماء رمز لحياة أخرى بعكس الموت الطبيعي حيث يتجمد الدم في خلايا الإنسان، فالإشارة إلى واقعة الطف هنا ونظره زينب إلى دم أخيها العباس (ع) وهو ينزف في نهر الفرات صورة لحياة أخرى فقد وهي حياته ونفسه وجسده العطشان من اجل عالم آخر ونقرأ في مكان آخر دماً ينزف ليدل على حياة أخرى.

**كانت الأصوات تصله في النوم**

**انتصبت قرب رأسه شجرة ورافة الضلال**

**ومرت امرأة ووضعت على ضريحه وردة**

**ومضت**

**إلا إن الكابينة الغارقة بالدم**

**غارقة بالدم**

**الكابينة الغارقة بالدم.**

فالأسطر الأربعة لا تحتاج لتأويل كبير لندرك دلالتها ،فالحدث واضح ولا يتطلب جهدا عقليا كبيرا ، ولكن ثمة امرأة تضع على قبر احد الأموات وردة ، وهذا ليس بجديد إذ لا

ندرك ثمة شعرية كبيرة في الموضوع إلا إن مسار النص سرعان ما يتحول عندما ينزاح عن مستواه بذكر الكابينة التي تنقل الطاقة غارقة بالدم، فهنا إشارة سيميائية معقدة نستطيع أن نرشح دلالة قد تكون مقصودة من لدن الشاعر وهي إن الكابينة رمز الحضارة والتطور التقني، وهي غارقة بالدم الدلالة،وهنا إشارة إلى أن ما حققه الغرب من تطور لا يغفر له ما اقترفه بحق الإنسانية من قتل الملايين بوساطة الأسلحة الفتاكة المحرمة.

وهكذا تغدو مفردة الدم جزءاً لا يتجزأ من فرادة الشاعر في أسلوبه فضلاً عن مفردة الموت التي تكونت بدلالات مختلفة إذ يتميز الشاعر هنا مثل شعراء آخرين كالسياب والبياتي وغيرهم فلفظة مطر أصبحت لصيقة بالسياب ولها دلالات خاصة به وكذلك أصبحت لفظة الدم نقطة تحول لفظية سيميائية في شعر رعد عبد القادر؛ إذ يرمز الدم هنا إلى حياة جديدة هذه المرة نقرأ في نص آخر:

**سترين الأشكال العارية**
**والهياكل المسجونة**
**والسطور الفارغة**
**والزجاج المتناثر والأجنحة المدماة**
**التقطها ... التقطها ... قطرات الدم**
**والطيور تتصرخ والمرأة تنسى .**

نلاحظ الانتقال من مكان لآخر عن طريق الطيران الذي جاء غريباً من خلال الأجنحة الحمراء ... أجنحة مليئة بالدم (مدماة) دلالة على انتقال وانتفاض الطائر المذبوح ويحصل هذا عندما يتم ذبح الطائر البريء إذ سرعان ما يلوح بجناحيه مصفقاً من الألم وانتفاضته وحرقته ضد الجاني من خلال التحليقة الأخيرة ثم خروج الروح نحو الفضاء البعيد:

**التقطها ... التقطها ... قطرات الدم**
**الطيور ... تصرخ .**

أصبحت مفردة (الدم) كما ذكرنا آنفاً جزءاً من أسلوبية الشاعر ومهيمنة بشكل كبير في معجمه اللغوي في هذه المجموعة استطاع الشاعر من خلاله أن يغرف صورا مختلفة إذ حاول زج هذه اللفظة في بنية القصائد تعميقاً وتثويراً للبناء الدلالي للقصيدة ورفع طاقاتها الشعرية الموحية بدلالات نابضة؛ بما يعطي القارئ المقدرة في فرز الدلالة المطلوبة التي تخدم الخزين المعرفي ؛ إلا إن هذه المفردة توحي بدلالات محددة لا يمكن تجاوزها عن طريق الاسترجاع أو القراءات التأويلية الأخرى؛ ولكن ينبغي البحث عن المعنى الآخر لهذه المفردة داخل النص وما توحي به من قيم فكرية عن طريق شبكة معقدة من العلاقات المتجاورة وبين المفردات الأخرى الموازنة والمرادفة داخل سياق النص بما يعطي ويعزز دلالة كلية نهائية مستوحاة من قراءة كلية فاحصة للنص في ضوء المعطيات التي تتيحها آليات التأويل المتبعة.اذ نرى في مكان آخر:

**الإصبع تتحرك على زناد الحائط**

**البندقية المعلقة في غروب الشمس**

**تطلق النار على موج الفراشات**

**الشجرة تفر من الدم**

**الأجنحة تصطدم بقوة بالحافة المسننة للشمعدان.**

فالدم يوحي بالموت / الانتقال / التحول ، ويبدو أن الشاعر قد تكهن بهذا التحول وأحس به بصدق لأنه كان ملازماً له في اغلب الأحيان (اغلب النصوص) في هذه المجموعة فتقرأ في قصيدته الأخيرة من هذا المجموعة بعنوان ( قصيدة موته) التي يقول فيها:

**يكتب قصيدة موته**

**يكتب قصيدة موته كل يوم**

**يكتب كل يوم قصيدة موته**

**وكلما انتهى من القصيدة**

**توقع ان وضع خاتمة لحياته**

**لقد عاش طويلاً وجرب ان يعش قصائده**

**واليوم يريد انه يجرب قصيدة موته ...( ص١١٤.)**

إذ يؤدي التكرار دوراً هاماً في تأكيد الحدث إذ إن الإلحاح على متوالية معينة لها دلالات ثابتة يعمق من قرب الحدث المرتقب فالشاعر جرب أن يعيش قصائده (حياته) بكل أصنافها وعليه أن يعيش قصيدة موته لا فرق في النهاية فيمن يكتب الآخر، القصيدة أم الشاعر فهو يضع تفاصيل لحياته بوساطة نصوصه ومن ثم يمارسها على ارض الواقع واليوم يريد أن يجرب قصيدة موته إنها الممارسة الأخيرة له ... إنها ممارسة الموت ... ممارسة الحياة الانتقال إلى عالم آخر؛ ولكن التحول في بنية الجملة الأخرى كان بسيطاً فعندما قال: يكتب قصيدة موته كل يوم فغيرها وقال يكتب كل يوم قصيدة موته لم يحرك البعد الدلالي عند القارئ باستثناء تقديم فعل الاستمرار على فعل الكتابة وفي نهاية المطاف فان الموت يندرج في استمرارية الكتابة ومن يتحول إلى حياة بفعل الكتابة إن الكتابة ميلاد جديد خلال القصيدة حتى لو كانت هذه القصيدة توقعاً لموته أو هي أساس لموت طارئ .

**الهوامش:**

* صقر فوق رأسه شمس، قصائد نثر رعد عبد القادر.

١. ينظر: مبادئ في علم الدلالة، رولان بارت ص٢٠.

٢. ينظر: معايير تحليل الأسلوب ميخائيل ريفاتير، ٤٢.

٣. وجود النص، نص الوجود مصطفى الكيلاني، ص٦٠.

٤. في القراءة، قراءة ما لم يقرأ، علي حرب، ص٥٧.
٥. ينظر: علم النص، جوليا كريستيفا، ص٧.
٦. مفهوم المرجعية وإشكالية التأويل، محمد خرماش ، ص٤٠.
٧. المعنى الأدبي وليم راي، ص١٧.
٨. ضد التأويل، سوزان سونتاغ ص٦٧.
٩. دلائل الإعجاز، عبد القادر الجرجاني، ص٣٥.
١٠. ينظر، علم النص، جوليا كريستيفا، ص٧.

**المصادر:**


١. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، حققه وعلق عليه احمد المراغي، المكتبة المحمودية، القاهرة، ط١، د.ت.
٢. صقر فوق رأسه شمس، شعر رعد عبد القادر، مكتبة المنصور العلمية، بغداد، ط١، ٢٠٠٢.

٣. ضد التأويل: سوزان سونتاغ ت: باقر جاسم محمد مجلة الثقافة الأجنبية، عدد ٣، سنة ١٩٩٢.
٤. في القراءة، قراءة ما لم يقرأ، علي حرب، مجلة شؤون أدبية، الإمارات عدد (٧-٩) ١٩٨٩.
٥. علم النص، جوليا كريستفا،تر: فريد الزاهي مراجعة عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، المغرب ط١، ١٩٩٣.
٦. مبادئ في علم الدلالة، رولان بارتر تر: محمد البكري، مشروع النشر المشترك، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد دار النشر المغربية ط١، ١٩٨٦.
٧. معايير تحليل الأسلوب: ميخائيل ريفاتير ترجمة وتقديم وتعليقات د. حميد لحمداني.
٨. المعنى الأدبي (من الظاهرانية الى التفكيكية)، وليم راي: تر : د يوئيل يوسف عزيز. دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد ط١، ١٩٨٧.
٩. مفهوم المرجعية وإشكالية التأويل، محمد خرماش، مجلة الوقف الأدبي عدد ٩ – سنة ١٩٩٧.
١٠. وجود النص، نص الوجود، مصطفى الكيلاني، الدار التونسية للنشر والتوزيع. سلسلة موافقات رقم (٢) مطبعة تونس قرطاج، ط١، ١٩٩٢.